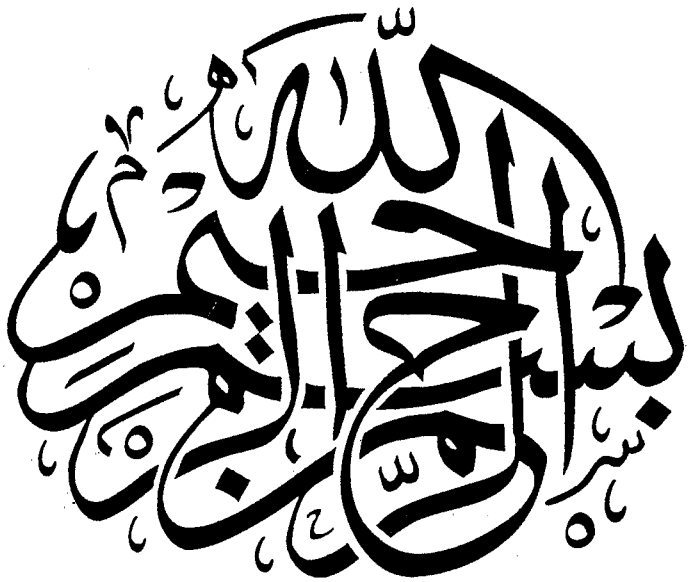
بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــــر وتقديـــر

بعد أن مَنَّ الله عليّ بإتمام هذه الرسالة، أتوجه إليه سبحانه وتعالى بالشكر والحمد على جزيل عطائه وتمام فضله.

واعترافاً بالحق لأهله، وامتثالاً لأمر نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم القائل: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[1]، فإني أتقدم بخالص شكري، وعظيم امتناني وتقديري لسعادة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المرشدي المشرف على الرسالة، وذلك لكريم خلقه وحسن توجيهه، وإفاداته العلمية، فجزاه الله عني أوفى الجزاء، كما لا يفوتني أن أتقدم بشكري العميق لعضوي المناقشة الأستاذين الدكتورين/ علي بن نفيع العلياني، أستاذ الدراسات العليا بجامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ويوسف بن محمد السعيد، رئيس قسم العقيدة بجامعة الإمام محمد بن سعود، بالرياض. رغم أشغالهما الكثيرة، ومسؤولياتهما العديدة، فجزاهم الله خير الجزاء.

والشكر موصول لجامعة أم القرى التي أتاحت لي فرصة الدراسة فيها، فجزى الله القائمين عليها من مدراء وعمداء وعاملين خير الجزاء. وبطاقة عاطرة وتحية كريمة للأستاذ أسعد أبوالخيور، سكرتير الدراسات العليا بجامعة أم القرى، وذلك لما يبذل من سعي حثيث في خدمة وتبصير اخوانه الدارسين.

وأخيرا، لا يفوتني شكر شركة دار الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر جريدة «الرأي العام» الكويتية - على طباعتها وتصويباتها وإخراجها للرسالة في صورتها النهائية.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رواه أحمد في مسنده جـ ٥، ص٢١١، ٢١٢ من حديث الأشعث بن قيس، وأبوداود، كتاب الآداب باب شكر المعروف حديث رقم (٤٨١١).

ملخـــص الرســـالة

عنوان الرسالة «اطروحات التوفيقيين حول قضايا المرأة بين الإسلام والعلمانية» (دراسة نقدية).

وأهمية الموضوع ترجع إلى عناصرعدة أولها: قضية المرأة وحقوقها وحريتها التي شهدت صراعاً ثقافياً كبيراً بين دعاة الإسلام وشبكة من الخصوم داخل العالم الإسلامي وخارجه. وثانيا: ازدياد نشاط أصحاب الفكر التوفيقي في تولي الدفاع عن الطعون الموجهة للإسلام وانتشار أتباع الاتجاه التوفيقي في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، ما جعل لأطروحاتهم رواجاً مع غياب ملحوظ لاتجاهات الأصالة، أو حضور غير مدروس على صعيد الإعلام الذي هو الأكثر وصولاً للناس والتأثير على مفاهيمهم.

وثالثاً: تبني العلمانيين لبعض رموز المدرسة التوفيقية وأطروحاتهم لا حبا فيهم، وإنما لاعتبارهم خطوة في طريق التحرر من سلطة النص الشرعي كما يعبرون.

والهدف من الرسالة القاء الضوء على أسباب نشأة هذه المدرسة ودوافعها وأثرها في الساحة الثقافية وانصافها بما لها وما عليها.

مع التوضيح للفرق الشاسع في المنطلقات والمقاصد لكل من المدرسة التوفيقية والمدرسة العلمانية وإن تصادف التقاء المدرستين في بعض الآراء.

ومنهج الدراسة لآراء التوفيقيين يكون من خلال عرض شبهات العلمانيين أولاً في كل قضية من قضايا المرأة على حدة، ثم نستعرض آراء التوفيقيين في طرقهم لذات الشبهة وردهم عليها، ثم نقوم بتقييم آراء التوفيقيين ونعرض ختاماً للمسألة حسب ما انتهى إليه تصورنا.

واحتوى البحث على التعريف بالمصطلحات في فصله الأول (الشبهة والعلمانية والتوفيقية). ودراسة المدرسة التوفيقية برموزها ودوافعها وموقف العلمانيين منها في الفصل الثاني، أما الفصل الثالث فتناولنا فيه موقف التوفيقيين من شبهات العلمانيين (الميراث، القوامة، دية القتل، الشهادة، ضرب النساء، الطلاق)، وفي المبحث الثاني من هذا الفصل قضية معركة الحجاب والثالث تعدد الزوجات، بمباحثه الخمسة، ودور الإعلام في تشويه هذه المسألة ودعواهم لتعدد الأزواج، وإسقاطهم الشرط العقائدي لزواج المسملة من غير المسلم، تغيير قوانين الأحوال الشخصية... والمبحث الرابع ناقشنا قضية ولاية المرأة (الإمامة العظمى)، بين التوفيقيين والعلمانيين، والمبحث الخامس دراسة للفروق التكوينية (النفسية والعقلية والبيولوجية) بين الجنسين وأثر هذا الخلاف في وظيفة كل من النوعين في إعمار الحياة وتبادل وتكامل الدور الاجتماعي لكل منهما ومراعاة الأحكام الشرعية لهذه الفوارق التكوينية. وكيف أن العلم والعقل والتجربة التاريخية تنطق بصدق الأحكام الربانية لتريهم آيات الله في الأنفس والواقع.

ABSTRACT

The title of the dessertation is: "Syncretist Propositions On Women's Issues Between Islam And Secularism (A Critical Study)

The importance of this subject. stems from three axes. Firstly, the issue of women's rights and liberty which has been witnessing an intensive cultural struggle between Muslim propagandists and a network of antagonists within as well without the Muslim World. Secondly, the increasing activity of syncretists in the field of defending the contestations directed againsl Islam as well as the widespread presence of the syncretist in visual and audible mass media in a way that lent considerable popularity to their propositions, especially with a noticeable absence of the approaches of judiciousness or with a random presence on the front of mass media which can reach the largest number of people and affect their conceptions. Thirdhy, the secularist's adoption of some of the syncretist' symbols and propositions; not out of liking for them, but rather because the secularist consider these symbls and propositions as a step on the way of emancipation from the authority of the riligious text.

The objective of the dessertation is to shed light upon the emergence of syncretism, as well as on its motives and effects on the cultural arena, in a fair way that reflects its advantages and disadvantages.

Besides, the dessertation aims to shed light upon the vast differnce of starting points and goals of both the syncretist and secular doctrines; albeit the two schools agree coincidentally on some issues.

The dessertation's methodology of research concerning the syncretist's views begins first with propovnding the secularist's skepticisms regarding each one of the women's issues. After that the methodology of research reviews the syncretist's views regarding the same skepticisms. Then the dessertation evaluates the syncretist's views before finally concluding with the author's own conception regarding the whole subject.

In its frst chapter, the dessertation includes terminological definitions of skepticism, scularism and syncretism.

The second chapter studies the syncretist doctrine's symbols and motives as well as the secularist's attitudes towards them.

The third chapter deals with the syncretist's attitudes to the secularist's skepticisms regarding issues such as inheritance (men's) guardianship, blood money, testimony, beating women and divorce. The second investigation of the third chapter studies the issue of the 'Battle of the Veil, while the third investigation deals with the issue of polygyny with its five examinations, the role of mass media in defaming this issue, the syncretist's calls for polyandry and their calls for dropping the docrtrinal (religious) precondition concering the marriage of a Muslim woman to a non-Muslim man; and their calls for changing the personal status laws. The fourth investigation discusses the issue of women's governorship (Great Imamship) between the syncretist and the secularist.

The Fifth investigation is a study of the formative (psychological, mental and biological) differences between the two sexes (i.e. males and females), the effects of these differences in the role of each sex in populating life, the integration of the social roles of both sexes, how the Islamic Shari'a laws take these formative differences into consideration, and how science, mind and historical experience all articulate the veracity and truness of the divine laws in a way that shows them (i.e. the syncretist and the seularist) Allah's signs in the human souls as well as in reality.

المقدمـــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما﴾[1].

أما بعد:

فإن الله سبحانه وتعالى أكرم هذه الأُمة بأن أنزل إليها خير كتبه، وأرسل إليها أفضل خلقه، وجعلها خير أُمة أُخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، فكلفها سبحانه بأشرف مهمة، بحمل دعوة التوحيد ونشرها في ربوع الأرض، بعد أن تكفل بحفظ دينه الذي ارتضاه لها. والتاريخ الإسلامي منذ البعثة النبوية مروراً بالخلافة الراشدة ومضياً مع دول الإسلام وممالكه يحدثنا عن جهود المسلمين وجهادهم في حمل كلمة التوحيد إلى البشرية، كما يحدثنا التاريخ عن سنن الله التي لا تحابي أحداً كما قال سبحانه: ﴿كلاً نُمد هؤلاء وهؤلاء من عطاءِ ربك، وما كان عطاءُ ربكَ محظورا﴾[2]. فرأينا انتصارات طلائع التوحيد وقيام ممالك الإسلام، وقدرة دولة المسلمين، كما قرأنا، عن هزائم المسلمين، وإخفاقاتهم على أصعدةٍ عديدة أمام المشركين.

إلا أن الأمة لم تُصب بالضعف والتشرذم والتمزق وتمكن الأعداء من أرضها وممتلكاتها واختراقها والهيمنة على شعوبها، نفسياً، وإدخالهم في التبعية الاقتصادية والسياسية الثقافية كما هو الحاصل في واقعنا المعاصر.

ولقد نشطت دعوات إسلامية، ورُفعت رايات في أرجاء العالم الإسلامي قبل سقوط

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٧٠، ٧١).

(٢) سورة الإسراء، الآية (٢٠).

دولة الخلافة الهزيلة عام ١٩٢٤م وبعد سقوطها، رايات تحث المسلمين أن ينضووا تحتها لاستئناف حياة إسلامية جديدة، ونبذ المستعمر، والتحرر من الهيمنة بكل أشكالها.

وتنوعت مناهج الدعوات الإسلامية وتعددت أولوياتها وأساليبها، وإن كان الهدف العام واحداً، ألا وهو العودة إلى الإسلام والتحاكم إلى الشريعة.

وكان من ضمن هذه الدعوات، النشاط الذي قامت به المدرسة التوفيقية التي تسمى إصلاحية وعقلية وسلفية وتنويرية، وأحياناً تنعت بمدرسة المعتزلة الجدد، توسعاً في التعبير.

كانت هذه المدرسة تمثل خط المواجهة الأول بين الشرق المسلم المهزوم والمتخلف وبين الغرب المنتصر والمتفوق المتمدن. فكيف كان هذا اللقاء؟ وكيف تعامل رواد المدرسة مع ثقافة الغرب العلمية والعملية؟ وما هي اجتهاداتهم في إحياء الأمة من جديد؟ وما هو المنهج الذي سلكوه لتحقيق أهدافهم؟ وكيف نظر إليهم الناس والعلماء؟ وأين موقع المرأة من إصلاحاتهم ومشروعاتهم؟ وأين تكمن أهمية هذه المدرسة؟ ولماذا ندرسها؟ هذه الأسئلة وغيرها ما سوف تبحثه هذه الأطروحة؟

أهمية الموضوع وسبب اختياره

أسبـــاب اختيـــار الموضـــوع

لا يخفى أن موضوع اختراق أعداء الإسلام للمجتمعات الإسلامية من خلال مشاريع تغريب المرأة المسلمة بات من البديهيات التي عرفها كل من يحمل في نفسه هم الإسلام ولقد بُذِلتْ جهود جبارة ومشكورة من قبل علماء الإسلام ودعاته في التصدي لشبهات مدارس التغريب والعلمنة وسدوا ثغرات كثيرة في موضوع المرأة المسلمة وقضاياها. وقد يتساءل البعض لماذا إذاً يُبحث الموضوع وقد درس كثيراً؟!

■ **أولا بالنسبة للعلمانية:**

١ - إن تطور أساليب ومناهج العلمانيين في تناول قضية المرأة المسلمة يحتاجان من الباحث ألا يكتفي بما سبق من دراسات وإنما يلاحق آخر أساليب الخبث سداً للثغرات الجديدة.

٢ - لاحظت أن كثيرا من الدراسات المطروحة تقف من الهجوم العلماني التغريبي موقف المتَّهم، إذ يقف الباحث موقف من يدافع عن نفسه وهو قابع في قفص الاتهام!

فهو حريص على أن يستثير بطريقة دفاعه عن النفس شفقة النفوس أكثر من حرصه على أن ينال قناعة العقول(١). ومن هنا سيكون منهج البحث متعاليا على الشبهات سالكاً طريقة «قلب الدليل على صاحبه».

٣ - خلت دراسات كثيرة تتناول رد طعون خصوم الإسلام من استثمار «آيات الأنفس» التي أمرنا الله بتدبرها، في دحض افتراءاتهم وإثبات صدق أحكام الله تعالى. علماً بأن علوم الإنسانيات في القرن العشرين انتهت إلى نظرة علمية جديدة نسخت النظرة العلمية القديمة، التي اصطبغت بصبغة مادية معادية للدين كرد فعل إزاء هيمنة الفلسفة المدرسية المسيحية على العقول، والتي وصلت إلى حالة من التحجر العقلي والتخبط الفكري، وقد انتهت النظرة القديمة إلى الإلحاد

---

(١) التعبير مستفاد من الدكتور محمد البوطي. ص١٣ من كتابه «المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني».

والاستهتار بكل القيم الأخلاقية والروحية، وفسرت السلوك تفسيراً غريزياً فسيولوجياً[1]. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية ظهرت حركة جديدة في علم النفس اعترف روادها بالعقل، ورفضوا تفسير السلوك البشري بلغة الدوافع والغرائز الحيوانية، وآمنوا - بدلاً من ذلك - بالقيم الأخلاقية والجمالية والجوانب الروحية والفكرية والنفسية[2]. لذا سيلاحظ القارئ أننا نوظف العلوم الإنسانية وعلم الطب وعلم الإجرام في إسقاط شبهات العلمانيين من باب الإلزام للخصم بما يستند إليه ويفخر به (العلوم العصرية) مستعينين - قدر الاستطاعة - بآخر ما وصلت إليه البحوث العلمية الجديدة.

٤ - قلة تناول الدراسات الإسلامية لشبهات وأطروحات العلمانيين «المغاربة» إذ التركيز ينصَبْ على أطروحات علمانيي المشرق العربي.

والمراقب الثقافي يلاحظ أن طريقة تفكير المغاربة، نسبة للمغرب العربي - شمال أفريقيا، وأسلوب تعاطيهم مع الثقافة الغربية - الفرنسية بالأخص - ولَّدت عندهم شبهات ومداخل وأفكار لا نجدها عند الشرقيين، وهذا يمثل فراغاً يحتاج إلى متابعة. من هنا أدرجنا في بحثنا وتابعنا دراسات رموز أشهرهم مثل:

د. محمد عابد الجابري، د. محمد أركون، د. فاطمة المرنيسي، د. حفيظة شقير، د. درّة محفوظ... وغيرهم.

٥ - لقد أغفل كثير من الدراسات التي عنيت بموضوع «العلمانية والمرأة» البحوث والدراسات المتزايدة، التي تقدمها كليات التربية وأقسام العلوم الاجتماعية في الجامعات، وتصدرها مؤسسات ثقافية لها ثقلها الأكاديمي. حيث إنهم من خلال بحوث اجتماعية ميدانية للمجتمع الريفي أو البدوي أو البدائي[3]، يتسللون بذكاء إلى ربط تخلف المرأة في تلك البيئات بالأديان، ثم بالإسلام

---

(١) فسيولوجي Physiology: علم وظائف الأعضاء، هو فرع من علم الحياة Biology، وهو يدرس السلوك الفسيولوجي لأعضاء الجسم أي أداء أعضاء الجسم لوظائفها حتى يظل الجسم محتفظاً بحيويته. انظر: د. فرج عبدالقادر طه ورفاقه، معجم علم النفس والتحليل النفسي، دار النهضة العربية، بيروت، ط الأولى، بلا تاريخ.

(٢) انظر: روبرت م. أغروس وجورج ن. ستانسيون، العلم في منظوره الجديد، ترجمة كمال خلايلي، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، سلسلة عالم المعرفة، رقم ١٣٤، جمادى الآخرة ١٤٠٩هـ - فبراير/شباط ١٩٨٩م.

(٣) انظر على سبيل المثال: كتاب «في وطني أبحث: المرأة العربية في ميدان البحوث الاجتماعية»، حيث شارك في هذا الكتاب ست باحثات من دول عربية متفرقة د. كاميليا فوزي الصلح، د. سعاد جوزف، د. ستاني شامي، د. ثريا التركي، د. سهير مرسي، د. ليلى أبولغد، كلهن متخصصات في علم (الانثروبولوجيا)، عدا كاميليا الصلح (علم اجتماع)، لا تحس وأنت تقرأ أبحاثهن أن لهن علاقة بهوية أو تاريخ. والكتاب إصدار مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط الأولى ١٩٩٣م. وانظر: د. خضر زكريا في كتابه «عن الوضع الاجتماعي للمرأة العربية»، دار الأهالي، دمشق، ط الأولى، ١٩٩٨م.

على وجه الخصوص، خالطين تلبيسا وتضليلاً بين أحكام الشريعة والتقاليد المجحفة للمرأة والتي لا علاقة للإسلام بها، إنهم يقومون بإيهام القارئ بأن لأحكام الشريعة الدور الأكبر في تأصيل تخلف المرأة المسلمة. ولا تسلم الأحكام والعقائد من نقدهم اللاذع والساخر، وهذا ما سندلل عليه ونبين خطره وخطأه.

٦ - ومن مسوغات فتح ملف المرأة من جديد أن «العلمنة» انتقلت من الجهود الفردية إلى جهود المؤسسات والمؤتمرات حتى بلغت ذروتها في السنين الأخيرة إلى الطرح تحت توجيه وسلطان النظام الدولي كمؤتمر بكين للمرأة، ومؤتمر السكان، اللذين يكرسان النموذج الغربي العلماني المتفسخ. وزاد الأمر تعقيداً وخطورة أن هذا الطرح التغريبي للمرأة والأسرة والعلاقات بين الجنسين عبر المؤتمرات الدولية أخذ طابع الإلزام والقسرا إضافة إلى تناولنا هذه المؤتمرات لم نغفل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فيما يختص ببنود المرأة.

٧ - لقد تسبب الانتشار الواسع للقنوات الفضائية التلفزيونية في العالم الإسلامي في إشاعة الفوضى الفكرية ونشر الشبهات والعبث بالأحكام الشرعية، ومس المسلَّمات من خلال المنهج الخاطئ للإعلام العربي في استضافة من هب ودب وفتح الأبواب للجميع لكي يقول أي شخص ما شاء كيف شاء وفي دين الله بحجة حرية التعبير ووجود طرف يمثل الاتجاه المعاكس.

هذا يدعونا لطرق الموضوع من زاوية التأثير الإعلامي العلماني لقضايا المرأة.

ثانياً بالنسبة للتوفيقية:

١ - قدمنا مسوغات ودواعي بحث «العلمانية» قبل «التوفيقية»، لأن المدرسة التوفيقية ما هي إلا نتاج رد فعل لهجمة العلمانيين والمستشرقين على الإسلام. ففهم أطروحات التوفيقيين لا يستوعب إلا بقراءة أطروحات العلمانيين وموقف التوفيقيين منهم ومن الغرب الذي يغذيهم ويوحي إليهم بالمفاهيم والمشاريع الإصلاحية.

٢ - ولأن العلمانيين اهتموا اهتماماً بالغاً بالمدرسة التوفيقية وركزوا دراساتهم على جهود روادها الأوائل: رفاعة الطهطاوي ومحمد عبده... وغيرهما، حيث اعتبروها أدوات ثقافية ممهدة في تلْيينْ عقلية المسلمة لتقبل النموذج الغربي والعلماني، وقد لاحظت هذا(١) بوضوح في كتابات

(١) أنظر الفصل الثاني، المبحث الثاني: أسباب ثناء العلمانيين على رموز التوفيقية ص٩٤

العلمانيين.

٣ - ثم إن هذه المدرسة ليست نكرة، وإنما لها انتشار واسع وقد ساعد على ذلك نشاطها الإعلامي البارز على المستوى الكتابي والتلفزيوني والمؤتمرات.

٤ - ومما يزيد من شعبية هذا التيار ويعطيه قبولاً في الساحة الإسلامية، هو حسن مقاصد بعضهم وأهدافهم العامة التي تتمحور حول الدعوة إلى استئناف حياة إسلامية جديدة، وفي الوقت ذاته لهم جهود مشهودة في مناظرة العلمانيين العلنية وفضح مخططاتهم[١]، وهذا يقتضي مناقشة أطروحاتهم بالمنهج المقارن بين ردودهم وجهودهم ضد العلمانيين وتقييم هذه الردود.

٥ - لقد قامت مؤسسات ذات شأن وتأثير وانتشار وإنتاج ثقافي غزير تتبنى أطروحات توفيقية وتبذل جهداً علمياً بإقرار مناهجهم في الإصلاح الإسلامي والتغيير[٢] فيما يزعمون. بل أن بعض وزارات الأوقاف والشؤون الإسلامية في عالمنا الإسلامي استحسنت أطروحات التوفيقيين وتبنت رجالها.

ثالثاً ـ المرأة والعقيدة:

قد تبدو بعض فصول الرسالة ذات طابع فقهي، ولعل البعض يتساءل: ما دخل أحكام المرأة وحقوقها في مسائل الاعتقاد؟ والجواب: إنه من المعلوم من الدين بالضرورة أن هناك تلازما بين العقيدة والشريعة، والشبهات التي وجهت للأحكام والآيات والأحاديث التي تخص المرأة اتخذت رأس حربة ضد عقيدة المسلمين، وسيتبين كيف أن العلمانيين يهدمون أساس العقيدة في اعتراضاتهم هذه ومن ذلك:

١ - اتهام القرآن الكريم بأنه ذو نزعة «ذكورية» أي متحيز للذكور.

٢ - يؤكدون أن الأحكام الخاصة بالمرأة تدل على أن الدين وضع اجتماعي وليس وحيا.

٣ - يفتحون باب التأويل بل التحريف للنصوص القاطعة بحجة نسبية الأحكام وينتج عن ذلك التلاعب العجيب بالآيات والأحاديث.

---

(١) من أشهرها المناظرة التي أدارها د. سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية للكتاب في معرض القاهرة الدولي تحت عنوان «مصر بين الدولة الدينية والمدنية»، شاركها عن الجانب العلماني: د. فرج فودة ومحمد خلف الله. وعن الجانب الإسلامي: الشيخ محمد الغزالي ود. محمد عمارة. ولقد طبعت الدار المصرية المناظرة، القاهرة، ط الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٢) ومن أبرز هذه المؤسسات وأكثرها نشاطاً وأغزرها إنتاجاً ثقافيا «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» في واشنطن، وله فروع عديدة في العالم الإسلامي.

٤ - يتطاولون على الصحابة وأمهات المؤمنين وبالأخص السيدة عائشة رضي الله عنها، بأنها مشعلة الفتن ومريقة الدماء. وطامعة في الملك والخلافة العظمى وما إلى ذلك[1].

٥ - إرجاع كثير من الأحكام الشرعية إلى موروثات الأديان الأخرى الوضعية أو السماوية كاليهودية وغيرها.

٦ - من خلال اعتراضهم على أحكام الشهادة والولاية وغيرهما يتهمون الإسلام بعدم العدالة بين الجنسين ثم يتجاوزون العقائد في اقتراحاتهم إلى الجانب التطبيقي مثل مطالبتهم بإباحة زواج المسلمة من أتباع أي دين وضعي أو سماوي أو مذهب مادي بدعوى تحقيق المساواة.

٧ - تم عملياً تغيير أحكام الشريعة الإسلامية في عدد من الدول الإسلامية من خلال استبدال قوانين الأحوال الشخصية تأثراً بالعلمنة والتغريب، إلى غير ذلك من مسائل تمس أصل الاعتقاد.

وأخيراً فإن موضوع تغريب المرأة وموقف العلمانيين منها همّ ثقافي خاص أحمله وأحاور فيه وأقرأ عنه كثيراً فهو قريب من نفسي وفي بؤرة اهتماماتي.

---

(١) أنظر: نبيل فياض، حوارات في قضايا المرأة «التراث» الحرية، تحت عنوان «السيدة عائشة والمعارضة» ص١٢٧ - ١٤٤.

خطـــة البحـــث

سارت خطتي في هذا الموضوع على النحو التالي:

بدأت البحث بمقدمة في أهمية الموضوع وسبب اختياره، ومنهج البحث فيه.

وكان الفصل الأول عن «التعريف بالمصطلحات الرئيسية الثلاثة» التي يدور حولها البحث كما هو ظاهر من عنوان الرسالة.

المبحث الأول: مفهوم الشبهات وأثرها على العقائد.

المبحث الثاني: مفهوم العلمانية ومنطلقاتها.

المبحث الثالث: مفهوم التوفيقية وسبب اختيار هذا المصطلح.

وكان الفصل الثاني عن: ظهور الاتجاه التوفيقي وأثره. وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: دوافع هذه المدرسة وأسباب نشأتها.

المبحث الثاني: أسباب ثناء العلمانيين على رموز المدرسة التوفيقية.

المبحث الثالث: تقويم المدرسة التوفيقية.

وقد أدرجنا الحديث عن أقطاب المدرسة التوفيقية ضمن البحوث الثلاثة، فجاءت ترجمة رفاعة الطهطاوي في المبحث الأول عند كلامنا عن دوافع هذه المدرسة وأسباب نشأتها، وتناولت شخصية محمد عبده في المبحث الثالث عند الكلام عن تقويم المدرسة التوفيقية.

وكان الفصل الثالث عن: موقف التوفيقيين من الشبهات العلمانية حول المرأة. وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول: قضية المساواة.

المطلب الأول: الميراث.

المطلب الثاني: القوامة.

المطلب الثالث: دية القتل الخطأ.

المطلب الرابع: الشهادة.

المطلب الخامس: ضرب النساء، ولماذا لم تأمر الشريعة النساء بضرب الرجال؟

المطلب السادس: الطلاق، ولماذا خصت الشريعة الرجال بالطلاق؟

المبحث الثاني: قضية الحجاب:

المطلب الأول: أساليب الحرب على الحجاب.

المطلب الثاني: اتجاهات التوفيقيين من الحجاب.

المطلب الثالث: فلسفة الملابس وسيكولوجية الموضة.

المطلب الرابع: البعد النفسي للملابس.

المطلب الخامس: الوظيفة الاجتماعية للحجاب وتفنيد الشبهات.

المبحث الثالث: تعدد الزوجات

المطلب الأول: دور الإعلام في تشويه صورة تعدد الزوجات.

المطلب الثاني: إرجاع العلمانيين التعدد إلى الظروف الاجتماعية.

المطلب الثالث: دعواهم إلى تعدد الأزواج.

المطلب الرابع: دعواهم إلى إسقاط الشرط العقائدي في تجويز زواج المسلمة من غير المسلم.

المطلب الخامس: تغيير بعض الأنظمة قوانين الأحوال الشخصية في التعدد تأثراً بالعلمانية.

المطلب السادس: الرد على شبهات العلمانيين في التعدد.

المبحث الرابع: قضية ولاية المرأة

المطلب الأول: حماسة العلمانيين لتولي المرأة رئاسة الدولة وشبهاتهم.

المطلب الثاني: مواقف التوفيقيين المتعددة من هذه المسألة وتفريقهم بين ولاية دولة إسلامية وبين الخلافة العظمى.

المطلب الثالث: الرد على شبهة حق المرأة في الولاية العامة.

المبحث الخامس: طبيعة المرأة ومكانتها

المطلب الأول: موقف العلمانيين من طبيعة المرأة التكوينية

المطلب الثاني: موقف التوفيقيين من طبيعة المرأة التكوينية.

المطلب الثالث: الرد العلمي... الفروق البيولوجية بين الجنسين.

منهج البحث

لقد نهجت في بحثي لموضوعات وقضايا التوفيقيين المتعلقة بالمرأة المسلمة، إلى تقديم عرض شبهات العلمانيين في القضية المبحوثة (الميراث، الدية، الولاية العامة، الحجاب،...إلخ)، ثم استعراض ردود التوفيقيين عليها، سواء كانت الردود مباشرة، أو غير مباشرة، كأن ترد في كتاباتهم وشروحهم العلمية لآيات الكتاب العزيز أو الحديث النبوي الشريف أو بحوث مفردة للمسألة المعنية.

ثم تأتي الخطوة الثالثة في تقويم ردود التوفيقيين على العلمانيين واستكمال الجهد في القضية المتناولة بالبحث، وفي أحيان قليلة نضطر للتعليق العارض لأطروحات التوفيقيين أثناء سردها في معرض إجاباتهم عن شبهات العلمانيين، لتوضيح مسائل يستلزمها السياق.

إذاً نبدأ بشبهات وقناعات العلمانيين ثم نثني بإجابات التوفيقيين وأخيراً نُقيم ما طرحه التوفيقيون، ولا نكتفي بإجابات التوفيقيين وإن كانت وافية، وغالباً لا تكون، لكثرة

الشبهات وتطورها وزواياها المتعددة.

عرض الشبهات

لقد قصدت الإطالة في عرض نماذج عدة لكتابات العلمانيين وأنا أناقش شبهاتهم لأدلل على أن المناهج التي يستخدمونها متعددة ومتنوعة لإبطال الأحكام الشرعية، أو إسقاط هيبتها في نفوس المسلمين، أو الإيماء بأنها استنفدت أغراضها الزمانية والتاريخية، لأُنبِّه الباحثين وطلبة العلم، إلى أن هؤلاء الطاعنين، لا يكلون ولا يملون من ابتكار الشبهات وتجديدها، ولأَحُث الدارسين، على أن ألا نكتفي بإيراد الشبهة إيرادا مطلقا والرد عليها ردا عاما، لأن الخصوم العقائديين ينثرون فنون شكوكهم تفصيلا، فالرد يجب أن يراعي هذا النهج، وليس الغرض هو الرد على كل جزئية، وإنما، لتوضيح صورة عرض العلمانيين وكيفية تطوير تناولهم للموضوعات التي ناقشها المستشرقون قديما ضد الأحكام الشرعية، وبهذا نساعد الباحث المسلم على تأصيل بحثه بما يناسب الخطاب الجديد والمتداول عبر وسائل الاتصال المسموعة والمقروءة والمرئية.

طبقات التوفيقيين؟

علينا منذ بداية البحث أن نفرق بين الذين اتخذوا التوفيق منهجاً في أطروحاتهم العلمية ومشاريعهم الإصلاحية، وغلب عليهم ذلك وعرفوا به، وبين من بدرت منهم آراء واجتهادات توفيقية عابرة. فهؤلاء لا يدرجون ضمن التوفيقيين، وإنما تناقش آراءهم على أنهم وافقوهم.

وفي دراستنا للتوفيقيين نفرق بين التوفيقي الخالص وبين من هو قريب منهم وإن كان يختلف معهم في منهجية تناول بعض القضايا. ومثال ذلك الشيخ محمد الغزالي، فهو معجب برواد المدرسة التوفيقية، ويلتمس لهم العذر في أخطائهم ويخالفهم في توسعهم بالتأويل لمسائل الاعتقاد، ولكنه من جهة أخرى يسلك مسلكاً متساهلاً انطلاقاً من الأخذ بالأيسر مع نزعة عقلية تجعله يوافقهم أحياناً ويقترب منهم أحياناً أخرى.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن في التوفيقيين علماء كبارا وفيهم مفكرين ليس عندهم حظ وافر

من العلم الشرعي وأصول الاجتهاد، كعباس العقاد مثلاً والألماني مراد هوفمان، وفيهم أناس أقرب ما تكون كتاباتهم إلى مقالات الصحف السريعة والانطباعات العامة، مما يوقعهم بأخطاء كثيرة كالدكتور مصطفى محمود.

كما أن التوفيقيين درجات، فمنهم غلاة في تأويل النص، وتجاوز الاجماعات المقررة الثابتة، والجرأة بغير علم ولا روية في اقتحام صعاب المسائل، ومثال هؤلاء الدكتور حسن الترابي. ومنهم من هو دون ذلك.

وفي بحثنا اخترنا أربعة من أقطاب المدرسة التوفيقية يصحبونا باجتهاداتهم في مجمل الفصول والمباحث وهم: رفاعة الطهطاوي، الذي يمثل خط المواجهة الأول في التقاء الشرق بالغرب، ومحمد عبده، التوفيقي المنهجي صاحب التجربة المتكاملة فقهياً وإصلاحياً وسياسياً، ومحمد رشيد رضا[1]، كشاهد على التحول من التوفيقية إلى السلفية، وعباس العقاد[2] كنموذج للتحول من العلمانية إلي التوفيقية. أما بقية التوفيقيين فإنهم يردون في البحث بحسب إسهاماتهم العلمية في الموضوع الذي نتناوله.

قاعدة في التصنيف

أحيانا تتفق تأويلات العلمانيين للنصوص الشرعية مع تأويلات التوفيقيين، فعلى أي أساس تم تصنيف هؤلاء علمانيين وهؤلاء توفيقيين؟ لقد أجاد الإمام ابن القيم في إيضاح مثل هذا الإشكال قديماً وكأنه يجيبُ على السؤال المطروح بتأصيل قاعدة عامة تنفع الباحثين في التصنيف إذا مرت بهم أقوال وآراء متطابقة لأشخاص ينتمون إلى مذاهب متباينة. فيقول: «والكلمة الواحدة يقولها إثنان، يريد بها أحدهما: أعظم الباطل. ويريد بها الآخر: محض الحق. والاعتبار بطريقة القائل وسيرته ومذهبه، وما يدهو إليه ويناظر عليه»[3]

---

(١)خفت النزعة التوفيقية لدى رشيد رضا واقترب كثيراً من منهج السلف، وبقيت رواسب من ذلك المنهج ويحكم على الرجل بما يغلب عليه، لذا خاصمه العلمانيون وأنكروا عليه هذا الرجوع ووسموه بصفات سلبية. انظر ص١٠٢ ـ ١٠٣ من هذه الرسالة.

(٢) حول جرأته على الذات الإلهية وتطاوله على سور القرآن في مرحلته العلمانية انظر كتاب عصر ورجال لفتحي رضوان، مكتبة الانجلو المصرية ط الأولى ١٩٦٧ ص٢٠٠ ـ ٢٤٨

(٣) مدارج السالكين جـ٣ ص٥٣١

مفهوم الشبهة وأثرها على العقائد

جاء في اللسان (مادة شبه):

والشبهة: الالتباس.

وأمور مشتبهة ومشبّهة: مشكلة يشبه بعضها بعضاً، قال:

واعلم بأنك في زما ❖❖❖ نِ مشبهاتِ هنّ هُنّه

وبينهم أشباه أي أشياء يتشابهون فيها.

وشَبَّه عليه: خلط عليه الأمرَ حتى اشتبه بغيره.

وقال الليث: المشتبهات من الأمور: المشكلات. ونقول شبَّهت علي يا فلان إذا خلّط عليك.

واشتبه الأمر إذا اختلط، واشتبه علي الشيء.

وجمع الشبهة شبه[1].

وفي القاموس المحيط:

الشبهةُ بالضم: الالتباس.

وشبه عليه الأمر تشبيهاً: لبس عليه

وتشابَهَا واشتبها: أشبه كلٌ منهما الآخر حتى إلتبسا.

ـ الشبهة في الاصطلاح:

غلب على تعريف الشبهة في كتب الاصطلاحات، المعنى الفقهي، فالشبهة عند الجرجاني: هي «ما لم يتيقن كونه حراما أو حلالاً»[2].

ثم يتبع التعريف بذكر أنواع تندرج تحته، كشبهة العمد في القتل، وما يقع في باب الأنكحة

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص٥٠٤.

(٢) محمد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط ص١٦١.

(٣) الشريف الجرجاني، التعريفات، ص ١٦٥، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥.

بالشبهة.

وذكر المناوي ما أورده الجرجاني من معاني الشبهة وزاد ما ذكره أبوالبقاء الشبهة: الظن المشتبه بالعلم. ثم قال: قال بعضهم: «الشبهة: مشابهة الحق بالباطل والباطل للحق من جهة إذا حقق النظر فيه ذهب»[1].

وأطال كل من التهانوي[2] ومن قبله القاضي الأحمد نكري في التفاصيل الفقهية للمعاني المتعددة المتعلقة بأنواع الشبهة. وتميز الأحمد نكري بإضافة ما أطلق عليه شبهة الاستلزام وهي قضية كلامية منطقية[3].

والذي يتفق من هذه التعريفات مع المعنى المراد من تداول هذا المصطلح اليوم هو ما ذكره المناوي من أن الشبهة «مشابهة الحق بالباطل والباطل للحق من جهة إذا حقق النظر فيه ذهب». فالمسألة تعود من حيث المعنى العام إلى الأصل اللغوي، في أن الشبهة التباس والاختلاط والشك في الأمور مما يحدث مشكلات في التصورات، أي أنها تزعزع اليقين، وهذا هو أقل المطلوب من مثيري الشبهات، وأول الخطوات في مسح العقيدة من الأذهان بعد إحداث الحيرة والتردد بسبب خلط الحق بالباطل. إذ لو كانت المسألة المبحوثة باطلاً جليا لما دَخلتْ في دائرة الالتباس والاختلاط.

وتمام تعريف المناوي يرشدنا إلى أن التحقيق العلمي يذهب الشبهة. وهذا موافق تماماً لكل الجهود التي قام بها العلماء في إزالة الالتباس عن الأذهان بسبب ما يقع فيها من شبهات وشكوك ومشكلات في الفهم، سواء كانت تلك الالتباسات عرضية طارئة، وهو ما يحصل لعامة الناس، لقلة العلم بالشيء أو عدم الاستيعاب للمسائل. أو التباسات جاءت نتيجة جهد مقصود من المبتدعة والمنحرفين وأعداء الدين قديماً وحديثاً. ومن النوع الأول - الشبهات العرضية - ما يقع لآحاد الناس من فهم النصوص القرآنية أو الحديثية والتي صنف العلماء فيها كتباً عن «مُشْكِلِ القرآن» و«مشكل الحديث»، أو شبهات عقائدية أشبه ما

---

(١) عبدالرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص ٤٢٢، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٢) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، جـ ١، ص ١٠٠٥.

(٣) القاضي الأحمد نكري، مصطلحات جامع العلوم (الملقب بدستور العلماء)، ص ٤٩٨.

تكون بالوساوس وحديث النفس في الالهيات والنبوات وعموم مسائل الغيب.

وأما النوع الثاني - الشبهات الموجهة - فهي ما تطفح بها وسائل الإعلام والنشر المعاصر. ويكون بعضها بجهد فردي وبعضها برعاية مؤسسات ثقافية خارجية ومحلية.

وما جهدنا في هذه الرسالة إلا استعراض وتفنيد لطرف من شبهات العلمانيين الذين لبَّسوا على الناس وخلطوا كثيرا من الباطل بقليل من الحق.

- لماذا الرد على الشبهات؟

لأول وهلة يبدو السؤال لا معنى له، إذ من البداهة أن الرد على الشبهة لإزالة اللبس وتوضيح الحق والانتصار له.

لكن الأستاذ محمد قطب صاحب كتاب «شبهات حول الإسلام» أكثر الكتب تداولاً - فيما أعلم - في باب رد بعض الشبهات المعاصرة[1]. طرح في مقدمة كتابه هذا رؤية جديرة بالاهتمام فيما يخص الرد على شبهات المستشرقين وتلاميذهم في بلاد المسلمين.

فالكاتب يعلن أنه عدل عن المنهج المتبع في كتابه وليس المعلومات الواردة فيه، فإن المنهج الذي يسير عليه الكتاب في صورته الراهنة هو إيراد الشبهة التي يثيرها أعداء الإسلام، ثم الرد عليها بما يبطلها. وذلك هو المنهج الذي تغير موقفي منه، فأصبحت أجد نفسي اليوم غير موافق عليه، ذلك لأنه يعطي الشبهة لوناً من الأهمية لا تستحقه، ولوناً من الشرعية يستوجب منا الاحتفال والاهتمام. ثم كأنما دين الله المنزل في حاجة إلى جهد منا - نحن البشر - لاثبات أنه بريء من العيوب!»[2].

ويرى محمد قطب «أن المنهج الصحيح هو عرض حقائق الإسلام ابتداء لتوضيحها للناس، لا ردا على شبهة، ولا إجابة على تساؤل في نفوسهم نحو صلاحية أو إمكانية تطبيقه في

---

(١) وهو ما يقربه المؤلف في مقدمة الكتاب حيث يقول: «وإني لأعلم أن هذا الكتاب بالذات هو أوسع كتبي انتشاراً وأكثرها طباعة، سواء في طبعته العربية أو في ترجماته التي تُرجم إليها، باللغة الإنجليزية وبأكثر من لغة من لغات العالم الإسلامي، وسواء في طبعاته المشروعة التي طبعت بإذني وعلمي، أو طبعاته الأخرى التي طبعت بغير إذن مني ولا علم!». شبهات حول الإسلام، ص ٧، دار الشروق، القاهرة، ط الحادية عشرة، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٢) شبهات حول الإسلام، ص ٨.

العصر الحاضر. وإنما من أجل «البيان» الواجب على الكتاب والعلماء لكل جيل من أجيال المسلمين. ثم لا بأس - في أثناء عرض هذه الحقائق - من الوقوف عند بعض النقاط التي يساء فهمها أو يساء تأويلها من قبل الأعداء أو الأصدقاء سواء! وفي مثل هذا الجو من الحقيقة كانت ترد ردود القرآن على شبهات المشركين وأهل الكتاب!»[1].

إن قناعة المفكر محمد قطب الراسخة بهذا المنهج الذي انتهى إليه، جعلته كما يقول في أول سطر من كتابه «لقد هممت أكثر من مرة أن ألغي هذا الكتاب من قائمة كتبي ولا أعيد طبعه!»[2]. مع علمه أن أكثر قراء هذا الكتاب هم من الشباب المسلم المتحمس بالذات الذين يتخذون من كتابه سلاحاً في معركة الجدل مع أعداء الإسلام.

والذي أراه أن فكرة أستاذنا وجيهة ومنهجية على أن يكون توضيح حقائق الإسلام متضمناً الرد على الشبهة أثناء الشرح المتسلسل لأي مبدأ أو حكم أو حقبة إسلامية.

أو أن يسير المنهج في خطين الأول استعراض الشبهات المبعثرة في قضية ما، ثم تفنيدها. وبعد ذلك عرض الفكرة الكلية الشاملة للمبدأ الإسلامي. وفي كل إشباع لحاجة ثقافية من حاجات المسلمين المتعددة المنتمين إلى بلدان وبيئات متنوعة. أي أننا نترك المسلم يستفيد من الطريقتين بعد أن نضع بين يديه وجبة ثقافية بالمنهجين معا. لا سيما أننا نعيش زمن الشبهات فيه من كل مكان[3].

سبب آخر يعزز عدول محمد قطب عن منهجه الأول في كتابه من إيراد الشبهة والرد عليها تفصيلاً، ألا وهو «أن الكثرة الغالبة من هؤلاء المجادلين لا تجادل بحثا عن الحقيقة ولا رغبة في المعرفة، وإنما فقط لإثارة الشبهات ومحاولة الفتنة.

والرد الحقيقي عليهم ليس هو الدخول في معركة جدلية معهم، ولو أفحمهم الرد في لحظتهم!

---

(١) المصدر السابق، ص ٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٧. قارن بين ما قاله عن هذا الكتاب، وبين ما قاله عن كتابه الإنسان بين المادية والإسلام، حيث نص في أول سطر فيه قائلا: «هذا الكتاب هو أول كتبي، ومن أحبها إليّ!»، دار الشروق، ط السابعة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٣) انظر: فصل «شبهات من كل مكان» في كتاب قذائف الحق للشيخ محمد الغزالي، ص ١١١، وما بعدها. منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط الرابعة، ١٩٨٠م.